

القدماء والمحدثون فى فرنسا

كان المذهب الأدبى الذى انتشر فى فرنسا منذ منتصف القرن السادس عشر، إلى أواخر القرن السابع عشر، مبنياً على تقليد البلاغة اليونانية والرومانية القديمة. ولم يكن الإعجاب بالقديم لأنه قديم فقط. بل لأنها بلاغة طبيعية حقيقية، قريبة من تمثيل الطبيعة الإنسانية، والحياة المادية والعقلية، كما لاحظ النقاد الشهير بوالو. ثم هى حقيقية فى معانيها، خالية من المبالغة التى تضر بالمعنى، وخالية من الخيال الذى يبعد عن الحقيقة. وقد وصل الإعجاب بالقدماء إلى أقصى ما يمكن. حتى لقد كان يخيّل إلى كبار الأدباء، أنه ليس هناك موضوع يصح أن يطرقه الكتاب والمفكرون إلا ما كان جزءاً من التاريخ القديم، أو تقليداً لشاعر أو كاتب يونانى أو رومانى.

ولكن تشعب من هؤلاء الأدباء - الذين ربت عقولهم هذه الآداب، وهذبت من ذوقهم - فرقتان: فرقة مزجت الفلسفة بفنون الكتابة، وحرمت التقليد، وقالت إن كل إنسان له أن يعتمد على استعداداته الخاص، وأن يكون دليله فى كل ما يكتب ويفكر العلم والفلسفة، وأن كل طريق يخالف ذلك يكون متهماً فى صحته ومطعوناً فى أصله. وتظاهرت هذه الفرقة بالعداء لأنصار القديم. وفرقة أخلصت فى حبها للقدماء، وفى اقتفاء آثارهم. وهم الأدباء الخالص الذين لم ينظروا للبلاغة إلا من حيث إنها فن من فنون الجمال، ورأوا حاجاتهم شديدة إلى تقليد بلاغة القدماء للوصول إلى غرضهم، لأنها أمتن وأمتع ما تكون بلاغة وصناعة. ولذلك كانوا يدعون إلى التمسك بمذهبهم، والإعجاب بالقدماء. وكان من أنصارهم كبار الكتاب

والشعراء فى القرن السابع عشر. وقد انتشر المذهبان وتنازعا البقاء نحو أكثر من نصف قرن، أى منذ ظهور كتب ديكارت الفيلسوف (سنة ١٦٣٧) التى انتشرت منها فكرته القائلة "بأن الفكر الإنسانى سائراً دائماً إلى الرقى" إلى أواخر القرن السابع عشر، حين التقى شارل بيرون "Charles Perranul" قصيدته الشهيرة فى المجمع الأدبى (سنة ١٦٨٧) وافتتحها بمساواة المحدثين للقدماء، بل بفوقانهم عليهم. ووازن بين زمن لويز الرابع عشر والأزمان القديمة. فأخذ المحدثون أنصار ديكارت يظهرهم وينشرون مذهبهم، وانتشر النزاع بين القدماء والمحدثين.

أثار عجاج هذا الخصام شارل بيرو، وهو أحد كبار كتاب وشعراء وأدباء القرن السابع عشر. وقد كان من المقدمين فى حظيرة الملك لويز الرابع عشر، ومن المشتغلين بالفنون، المعروفين بالذكاء وحب الحديد فى هذا العصر. ونشر كتابه المعروف "بالموازنة بين القدماء والمحدثين"^(١) وهو عبارة عن حديث بين قسيس عالم ذكى يدافع عن المحدثين ويمثل المؤلف نفسه، وبين رئيس كبير وصفه الكاتب بالغباوة والتعصب، يقدر القدماء ويعجب بهم. وقد بث المؤلف أثناء هذه المحادثة ما أراد أن يثبت ويبرهن عليه، من مذهبه وآرائه فى تفضيل الحديث على القديم. وكان مدار الحديث دائراً على هذه الفكرة الأساسية: وهى "أن القانون العام للعقول البشرية، والأفكار الإنسانية، هو التقدم والارتقاء فى العلوم والفنون، وأن المحدثين وصلوا إلى ما لم يصل إليه القدماء من الاختراع، والابتكار فى الماديات، لأنهم اطلعوا على أكثر ما عرف واطلع عليه القدماء. فكان لهم من التجربة ما لم يكن لهؤلاء. والمعرفة

(1) Paralleles des anciens des modernes. (1697 - 1688).

والعلوم ليست إلا نتيجة التجربة والاطلاع. فالمحدثون إذاً أرقى وأعلم من القدماء، لأنهم وقفوا على معلوماتهم ثم على ما حدث بعدهم من العلوم والأفكار. فلماذا إذاً لا يسبقونهم أيضاً في فنون الأدب والبلاغة؟ بل لابد أن يسبقوهم في هذا، كما فاقوهم في المخترعات المادية والوسائل الأخرى للمدنية الحديثة". قال: "وقد كان القدماء أطفالاً في العلوم والفنون، بالنسبة لما ظهر من نتائج العقول والقرائح بعدهم. أما المحدثون فإنهم يمثلون نضج الفكر، وغاية ما وصل إليه الإنسان من الذكاء. والأدب يبرهن على ذلك، وعلى أن كل عظيم من القدماء له ميل من المحدثين.

وقد التف بشارل بيروفونتيل "Fontenelle" أحد كبار الأدباء وألف كتاباً في ذلك^(١) أيد فيه رأى بيرو قال فيه: "إن طبيعة الإنسان واحدة في كل زمان ومكان، قابله للرقى والفلاح. فلا بد أن يكون لدينا الآن من العقول الناضجة، والعبقرية ما كان لأهل الأزمان الماضية. وأن الأجيال السابقة تترك للأجيال الآتية علومها واختراعاتها. فعقولنا الآن تعرف وتنقح كل الأفكار الماضية ونتائج القرائح السابقة. ذلك إلى ما نصل إليه نحن باستعدادنا الفطري ومباحثنا الشخصية. قال: "والحقيقة أن بعض الأقاليم يساعد على الذكاء ويربى الإدراك. وأن هناك عصوراً تدعو إلى التفهقر، وحوادث تقف حركات الأفكار والعقول، وأن هذه الحوادث قد تمنع ظهور كثير من مواهب أصحاب العقول والأفكار الراقية" وقال: "من الممكن أن لا يصل أحد إلى ما وصل إليه الشعراء الأقدمون. ولكن ليس من المستحيل أن يفوقهم سواهم. بل لابد أن يكون ذلك"^(٢).

(1) Digression sur les anciens et les modernes.

(2) Voir Lanson. his. Litt. Francaise, Page 598.

نرى من خلال هذا النزاع الذى احتدم بين القدماء والمحدثين ، أنه مبنى على فكرة فلسفية ، وأن الفلسفة أوضح وأبين فيه من الأدب إذ أن الفكرة الأساسية هى مسألة التقدم والارتقاء التى هى أصل فلسفة ديكارت ، المتسربة إلى الأدب ، المبنية على الاهتمام بالأفكار قبل الاهتمام بالصناعة اللفظية . فإنه جعل للفكر المنزلة الأولى ، وقال أن الإتيان والإبداع هما فى متانة الموضوع ، وفى الأحوال العامة التى تولد فى نفس القراء نوعاً من السرور والارتياح مما يقرأون . وقد زج هذا المذهب بالبلاغة فى مضايق الفلسفة ، وجعله مبنياً على البحث عن الحقائق ، بدل البحث عن مظاهر الجمال فى القول . وعلى ذلك لا يكون هناك فرق بين البلاغة والفلسفة ، ولا بين الفيلسوف والكاتب والشاعر . لأن كلا منهما على رأى ديكارت يقرر الحقائق ، غير أن الفيلسوف قد يكون أسلوبه أجف من أسلوب الأديب . وكان ينبغى أن تكون هذه البلاغة المبنية على مثل هذا المذهب الفلسفى الصرف ، عن كل معنى من معانى الجمال مما هو خاص بالفنون ، وسبب تفوقها . وكان هذا يكون عند أنصار الجديد الذين لم يفهموا البلاغة ، ولم ينظروا إليها إلا من جهة أنها تعبر وتبحث عن الحقائق . ولكن الذوق الأدبى فى فرنسا كانت هذبه الآداب القديمة بما فيها من الجمال . ولذلك بقيت البلاغة فناً من الفنون الجميلة . ولم يتغلب العلم والفلسفة على محو ميزة البلاغة وهى الجمال فى القول وفى حسن التعبير . وامتزجت الحقائق العلمية بالحقائق الفنية ، وأصبح البحث عن الحقائق سالگاً طرق الجمال . ولم يغير مذهب ديكارت الفلسفى من أثر الجمال وأثر الصناعة الأدبية . وأصبحت " وظيفة " البلاغة القديمة التوفيق بين الجمال وصناعة الكلام ، وبين الآراء الصحيحة والحقائق الممتعة .

وقد انضم إلى أنصار الجديد الأدباء والظرفاء الذين كانت تدور عليهم رحي المحاورات فى المجتمعات، وساعدهم فى ذلك النساء الأدبيات، اللائى كن يعجبن من المحدثين بذوقهم الأدبى، الموافق لأذواقهن، لأن طريقة أنصار القديم كانت ثقيلة على نفوسهن ككل شىء متين جدى، والنساء يعجبهن الخفة وعدم التعمق فى الأفكار، ولذلك كن من أنصار بيرو وفونتيل. وكان الناس فى ذلك العصر فى حاجة لأن تكون بلاغتهم أقرب إلى الاجتماع الذى يعيشون فيه، منها إلى الاتصال بتاريخ القدماء. فإن تقليد القدماء كان قد وصل إلى أقصى ما يمكن، والشىء إذا بلغ النهاية انقلب إلى ضده. فكان لموافقة الظرفاء وأهل الخلاعة، والنساء الأدبيات، المحدثين أثر عظيم فى الحركة الأدبية الجديدة. لأن ذلك كان من الأسباب التى منعت البلاغة من أن تسير فى طريق فلسفى صرف، بل سلكت مسلكاً فنياً، وتعانق الأدب والفلسفة، وتآخت الصناعة الأدبية وفنون الكلام الجميلة التى ورثها الفرنسيون من البلاغة القديمة، مع الأفكار الفلسفية المتينة ولبثت البلاغة ثوباً جديداً، وصارت ترمى إلى تمثيل الاجتماع.

هذه نتيجة الخصام الذى كان بين القدماء والمحدثين فى فرنسا. وهذا هو أثره فى البلاغة الفرنسية. وكان من جراء هذا النزاع أنه استل من القرن السابع عشر آداب القرن الثامن عشر، التى أجدر بها أن تسمى فلسفة لا آداباً، وانقلبت الأفكار انقلاباً عظيماً، وظهر العلماء أصحاب الموسوعات (Ency-clopedistes) الذين كانت فكرتهم الأساسية هى التقدم والارتقاء.

هذه الحركة نقلت النقد إلى البحث والتنقيب فى القديم والحديث. وكاد يكون القرن الثامن عشر خالياً من أثر واضح المنقذ الأدبى. لأن الأدب نفسه

كان فى عصر انتقال، فلم يكن النقد قد تمكن بعد من بناء أساس يرتكز عليه. على أنه قد ظهرت عدة كتب ومباحث لكثير من النقاد والأدباء، ولكنها لم تؤسس مذهباً، ولم تبين رأياً متيناً، بل كانت أشبه بآراء فردية، وإرشادات للأدباء والكتاب. وعندما أشرقت شمس القرن التاسع عشر ظهرت فى عالم الأدب والاجتماع سيدة أدبية عالمة، جالت الأقطار والأرضين، وصرفت زمناً طويلاً فى ألمانيا، ثم رجعت إلى بلادها فى نحو سنة ١٨٠٣، هذه هى مدام دى ستال (Madame de Stael). وقد ظهر كتابها "البلاغة" أو الآداب (La literature) وكتابها "ألمانيا" (L'Allemagne) فى سنة ١٨١٠ فكان من الوسائل التى نشرت فى فرنسا الأفكار الأجنبية، وأظهرت للعالم الفرنسى ما لم يكن يعرفه خارج "منطقة" عقله ومباحثه القومية.

وقد رأينا أن منهج البلاغة فى فرنسا كان تابعاً للبلاغة اليونانية والرومانية فقط، أما الآن فقد ظهرت الموازنة بين بلاغات الأمم الأخرى والبلاغة الفرنسية، واتجهت الأفكار إلى أن فى الجديد ما يصح أن يعجب به، وأخذ النقد يسير فى طريق آخر، ويدعو إلى التأمل فى بلاغات الأمم الأخرى، فخطى خطوة جديدة، وهى: أن الأدب صورة الاجتماع (La literature est l'expression de la société) وأن الكتابة الأدبية زيادة عما فيها من فنون الكلام وضروب الإعجاب، بها شئ آخر غير ذلك: وهو قيمتها التاريخية. وأنه لابد أن يلاحظ الناس أن هناك صلة متينة بين بلاغات الأمم ومدنياتهم المختلفة، لأنها دليل عليها وعلى مقدار ما أنتجت العقول والقرائح.

ثم عمل النقاد على ربط الكتابات الأدبية بالوسائل والأسباب التى أنتجتها، خلافاً لما كان معروفاً عندهم من فهم البلاغات بقطع النظر عن

الأسباب والحوادث والأزمان. وجعلوا النقد جزء من التاريخ العام، فأخذ النقد شكلاً آخر بدخول القرن التاسع عشر.

ثم جاء سنت بوف (Sainte Beuve ١٨٠٤ - ١٨٩٦) أكبر النقاد وأستاذهم جميعاً، ودفع بالنقد الأدبي في طريق جديد. فإنه لم يكتف بفهم الأدب من البيئة أو من العوامل الأخرى، بل أراد أن تكون صلة الأدب بين الكتاب أنفسهم، وبين أمزجتهم وخواصهم النفسية والعقلية. فكان مذهب سنت بوف من المذاهب التي ساعدت التاريخ العام على كشف حقائق النفوس والأفراد، وصار النقد عبارة عن (معمل تحليل) فيه النفوس وخواصها، وأصبح إحدى وسائل علم النفس. وعلم سنت بوف الباحثين والقراء كيف يقرأون، وكيف يبحثون، واتسعت على الباحثين دائرة معرفة الرجال ووسائل ذلك، ووصل سنت بوف إلى ترتيب العقول فصائل فصائل، لأن النقد عنده عبارة عن تاريخ طبعي للعقول والنفوس، تميز منها القوى من الضعيف، والأفكار العلمية من العقول الخيالية.

ومذهب سنت بوف في النقد من أعدل المذاهب وأقربها إلى الطريقة الأدبية. وقد ترك في كتاباته النفسية (Psychologiques) المعروفة "بحديث الاثنين" مجموعة من التاريخ الطبعي للنفوس والأفكار لا توجد عند أمة أخرى، ولا في أدب غير الأدب الفرنسي. وهو أول من جعل النقد الأدبي وسيلة من وسائل علم النفس^(١).

(١) قال: "النقد هو أن يعرف الإنسان كيف يقرأ، وأن يعلم غيره كيف يقرأ ويفهم" وقال: "ما أريده من النقد هو إيجاد نوع من الجاذبية والإقبال يدعو القراء إلى كشف الحقائق" وقال: "لم يبق لى إلا نوع من السرور: وهو جمع العقول وتحليلها تحليل" النباتي=

وجملة القول أن سنت بوف كان يهتم " بشخصيات " الكتاب والشعراء
أ: ثر من غيرهم . فلم يكن من غرضه أن يعرف الاجتماع وآثاره من جولات
الكتاب وميادين الفصاحة ، بل كان يبحث عن الأمزجة الخاصة وصور النفوس
من خطوات الأقلام فى الصفحات والطروس . وكانت جميع أحكامه على
المؤلفات أحكاماً على المؤلفين أنفسهم . وكان يقفو أثر المؤلف ويرافقه فى
منزله وحياته الخاصة ، ويشرف عليه وهو عند أصدقائه وفى مجتمعاته ،
ويتجسس عليه ليقف على أسرارہ النفسية وعواطفه وميوله ، ويعرف منه
الخبث والطيب ، وعلو النفس وانحطاطها ، وعقله وفكره وأهواءه
كل هذا ليعرف الكاتب وآراءه ومؤلفاته ، وبذلك أيضاً يتوصل إلى صلة
ذلك بأسباب عامة تتصل بالمدنية العامة .

=للأعشاب لأنى أردت أن أؤسس علم التاريخ الطبعى للعقول " . وقال أيضاً : " قد تكون
الأحكام المبنية على الأذواق صحيحة ، ولكن النقد لم يصح الآن عبارة عن أحكام مبنية
على قواعد البلاغة لا غير ، لأن تاريخ الأدب تغير ، وأصبح كالتاريخ الطبيعى : عبارة عن
عمل مجموعات من الأفكار والعقول ، وملاحظة ما بها من الخواص النفسية ، ثم الحكم
عليها بناء عن تجربة تامة صحيحة " وقال أيضاً : " إن الإنسان فى حاجة دائمة لتجديد
ملاحظاته ونظراته فى الرجال ، ووصفهم وصفاً تاماً ليعرفهم حق المعرفة ، وإلا عرض
نفسه للخطأ ، وخمل غيره على الوقوع فى خطئه . وليس من حق إنسان أن يدعى معرفة
الرجال فيقول أنى أعرف كل رجل . بل كل ما يمكن أن يقوله هو : أنى أبحث عن معرفة
الرجال .